ماهية السنة النبوية وحجيتها والرد على منكريها

كتبه غريب بتاريخ الأحد ٨ ذي الحجة ١٤٤٢

منذ فجر الإسلام والسنة النبوية محل نزاع, بين من يعتبرها جزءاً من رسالة الإسلام, وبين من ينكرها أصلاً.

وكما أننا بينا بالأدلة القاطعة أن القرآن كلام الله عز وجل, فإنه من الضروري بيان ماهي السنة النبوية, وبيان حجيتها ومكانتها في رسالة الإسلام.

في هذا المقال سوف نتطرق إلى:

تعريف السنة النبوية

السنة لغةً العادةُ والقانونُ والطريق, سنة الله هي أوامره, وأحكامه التي فطر الناس عليها, والسنة النبوية تعني طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم, الذي سلكه في

إقامة الدين, أي كيف أطاع رسول الله صلى الله عليه وسلم أوامر ربه, مثلا كيفية صلاته صلى الله عليه وسلم هي الكيفية التي أمر الله بها حين يأمر بإقامة الصلاة.

أي أن السنة النبوية هي الطريق التي سلك رسول الله صلى الله عليه وسلم في شأنه كله, ويتمثل في أقواله صلى الله عليه وسلم, وأفعاله وما أقره, فهو لا يقر الباطل.

ملاحظة مهمة:

إنطلاقا مما سبق نفهم أن الفعل أو القول الذي لم يثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم, لا يضاف للسنة النبوية أصلا, فالسنة كما أسلفت هي أفعال رسول الله وأقواله وتقريراته فعلا وليست المشكوك في صحة نسبتها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

كيف وصلتنا السنة النبوية

إن السنة النبوية حفظها الله لنا عن طريق الأسانيد المتصلة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم, السالمة من الشذوذ والعلل, بحيث يتقين المرء أنها صحيحة النسبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

هذه الأسانيد هي ميدان بحث علم الحديث الذي وضع مجموعة من الضوابط المنطقية للتحقق من نسبة الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

بحيث أن أدنى إحتمال للشك تُحرز منه بضوابط صارمة لتبقى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم نقية من أي شائبة تشوبها.

من أراد معرفة تلك الضوابط يراجع مقالنا تعريف الحديث الصحيح وسوف يطلع إن شاء الله عليها بتفصيل أكثر.

حجية السنة النبوية

دائما ما تظهر فرق تنكر حجية السنة النبوية ولو بدرجات متفاوتة, فبعضهم ينكرها جملة وتفصيلا.

وبعضهم يعتبرها وحياً من الدرجة الثانية, يعني بعد القرآن, فتراه يشترط في صحة الحديث موافقته للقرآن بحسب رأيه.

هذا الصنف هو الأكثر بين الناس, والسبب في ذلك كون الفقهاء قديما وحديثا فرقوا بين كتاب الله وبين السنة النبوية في المنزلة, مثال ذلك ما فعل الشافعي في الرسالة, حيث جعل السنة النبوية بعد القرآن

لذلك نحتاج إلى معرفة منزلة السنة النبوية من رسالة الإسلام, وهذا ما سوف نبينه إن شاء الله بالأدلة

الدليل الأول: أمر الله لنا بطاعة الرسول

لقد أمر ربنا عز وجل في كثير من الآيات بطاعة الرسول, وجعلها متمايزة عن طاعة الله, من ذلك قوله :

‹قُل أَطيعُوا اللَّهَ وَأَطيعُوا الرَّسولَ فَإِن تَوَلَّوا فَإِنَّما عَلَيهِ ما حُمِّلَ وَعَلَيكُم ما حُمِّلتُم وَإِن تُطيعوهُ تَهتَدوا وَما عَلَى الرَّسولِ إِلَّا البَلاغُ المُبينُ› [النور: ٥٤]

فأمر المؤمن بطاعتين متمايزتين وهما طاعة الله، وطاعة الرسول، ورغب في الأخيرة في نهاية الآية، لذلك متى ثبت أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجبت طاعته، وهذا بالضبط ما ندعوه السنة، فهي أوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم لنا الثابتة عندنا، ومن لم يطعها فقد نفى الله عنها الإيمان في الآيات التي قبل هذه الآية، حيث قال:

‹وَيَقولونَ آمَنّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسولِ وَأَطَعنا ثُمَّ يَتَوَلّى فَريقٌ مِنهُم مِن بَعدِ ذلِكَ وَما أُولئِكَ بِالمُؤمِنينَ۝وَإِذا دُعوا إِلَى اللَّهِ وَرَسولِهِ لِيَحكُمَ بَينَهُم إِذا فَريقٌ مِنهُم مُعرِضونَ۝وَإِن يَكُن لَهُمُ الحَقُّ يَأتوا إِلَيهِ مُذعِنينَ۝أَفي قُلوبِهِم مَرَضٌ أَمِ ارتابوا أَم يَخافونَ أَن يَحيفَ اللَّهُ عَلَيهِم وَرَسولُهُ بَل أُولئِكَ هُمُ الظّالِمونَ۝إِنَّما كانَ قَولَ المُؤمِنينَ إِذا دُعوا إِلَى اللَّهِ وَرَسولِهِ لِيَحكُمَ بَينَهُم أَن يَقولوا سَمِعنا وَأَطَعنا وَأُولئِكَ هُمُ المُفلِحونَ۝وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسولَهُ وَيَخشَ اللَّهَ وَيَتَّقهِ فَأُولئِكَ هُمُ الفائِزونَ› [النور: ٤٧-٥٢]

إذا وقفنا مع أوامر الله السابقة، أي أطيعوا الله، وأطيعوا الرسول، وأردنا طاعتها عمليا فإننا بطاعة أوامر الله في القرآن نكون قد أطعنا الله كما أمر، حيث أن القرآن كلام الله، ويبقى علينا طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم وهي مختلفة عن طاعة القرآن لأنها لو كانت كذلك لاكتفى بالأمر الأول "أطيعوا الله" فعلم يقينا أن أوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم التي ليست في القرآن هي المراد وهي التي نسميها السنة كما أسلفت.

طبعا طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم هي طاعة لله فهو لا يأمر من نفسه كما أخبر ربنا عز وجل:

‹مَن يُطِعِ الرَّسولَ فَقَد أَطاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلّى فَما أَرسَلناكَ عَلَيهِم حَفيظًا›

[النساء: ٨٠]

ومن هنا نفهم أن وحي الله المنزل على رسوله القرآن والسنة فكلاهما من عند الله أوجب الله اتباعهما.

الدليل الثاني: عدم تقول رسول الله صلى الله عليه وسلم على ربه عز وجل

يقول ربنا عز وجل:

‹وَلَو تَقَوَّلَ عَلَينا بَعضَ الأَقاويلِ◌لَأَخَذنا مِنهُ بِاليَمينِ◌ثُمَّ لَقَطَعنا مِنهُ الوَتينَ◌فَما مِنكُم مِن أَحَدٍ عَنهُ حاجِزينَ› [الحاقة: ٤٤-٤٧]

فلو تقول رسول الله صلى الله عليه وسلم على ربه لتحقق وعيد الله له, ونظرا لكون رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ينزل به وعيد ربه, عُلم يقينا أنه لم يتقول على ربه, ومن ثم إذا ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كلاما في الدين فهو من وحي الله عز وجل, وليس تقولا من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الدليل الثالث: استحالة أن تكون الرسالة القرآن فقط

يقول ربنا عز وجل:

‹وَما مِن دابَّةٍ فِي الأَرضِ وَلا طائِرٍ يَطيرُ بِجَناحَيهِ إِلّا أُمَمٌ أَمثالُكُم ما فَرَّطنا فِي الكِتابِ مِن شَيءٍ ثُمَّ إِلى رَبِّهِم يُحشَرونَ› [الأنعام: ٣٨]

ويقول أيضا:

‹وَيَومَ نَبعَثُ في كُلِّ أُمَّةٍ شَهيدًا عَلَيهِم مِن أَنفُسِهِم وَجِئنا بِكَ شَهيدًا عَلى هؤُلاءِ وَنَزَّلنا عَلَيكَ الكِتابَ تِبيانًا لِكُلِّ شَيءٍ وَهُدًى وَرَحمَةً وَبُشرى لِلمُسلِمينَ› [النحل: ٨٩]

ويقول أيضا:

‹لَقَد كانَ في قَصَصِهِم عِبرَةٌ لِأُولِي الأَلبابِ ما كانَ حَديثًا يُفتَرى وَلكِن تَصديقَ الَّذي بَينَ يَدَيهِ وَتَفصيلَ كُلِّ شَيءٍ وَهُدًى وَرَحمَةً لِقَومٍ يُؤمِنونَ› [يوسف: ١١١]

وغير هذه الآيات التي تدل على أن الكتاب فيه بيان كل شيء وتفصيله، وأنت أيها القارئ إذا قرأت القرآن من الدفة إلى الدفة ألف مرة لن تجد بيان عدد الصلوات ولا كيفيتها، ولن تجد النصاب من الزكاة، ولن تجد كثيرا من التفاصيل، مما يجعلك تعلم يقينا أن الكتاب المقصود في الآيات ليس القرآن فقط، بل شيء أشمل من القرآن فيه تفصيل كل شيء، فما هو؟

إن كلمة الكتاب تأتي في لسان العرب بمعنى الكتاب المكتب بين دفتين، وتأتي أيضا بمعنى الرسالة كما في قول الحق سبحانه:

‹اذهَب بِكِتابي هذا فَأَلقِه إِلَيهِم ثُمَّ تَوَلَّ عَنهُم فَانظُر ماذا يَرجِعونَ› [النمل: ٢٨]

وهذا المعنى أي الرسالة هو المقصود في القرآن الكريم، وقد نص القرآن على ذلك صراحة حين قال:

﴿وَما كانَ هذَا القُرآنُ أَن يُفتَرى مِن دونِ اللَّهِ وَلكِن تَصديقَ الَّذي بَينَ يَدَيهِ وَتَفصيلَ الكِتابِ لا رَيبَ فيهِ مِن رَبِّ العالَمينَ﴾ [يونس: ٣٧]

فعلم أن القرآن، تفصيل الكتاب، أي الرسالة، وليس كل الرسالة المرسل بها محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، التي فيها بيان وتفصيل كل شيء، ولقد فصلت في هذا الموضوع في مقال مستقل بعنوان ما هو كتاب الله.

نكتفي بهذا القدر من الأدلة التي يتبين منها أن السنة النبوية، جزء من الوحي مثلها مثل القرآن تماما، والباحث في القرآن سيجد بلا شك الكثير من الأدلة الأخرى التي تثبت أن السنة وحي من الله عز وجل، كما أن السنة نفسها قدمت الكثير من الأدلة العقلية أنها لا يمكن أن تكون إلا وحيا من الله عز وجل، وذلك بما حوت من حقائق علمية دقيقة جدا، لم تعرف إلا حديثا، وبما حوت من آيات تحققت فعلا بعدها بقرون.

لذلك فلا يحق له أن يفرق بين السنة النبوية وبين القرآن، فكل وحي الله عز وجل، والتفريق لم يقم عليه دليل.

شبهات حول السنة النبوية وردود

عند تحضري لهذا المقال بحثت عن أدلة القرآنيين المعاصرين، لأعرف ما يقوله الطرف الآخر، وللأسف وجدت أن من يسمون أنفسهم قرآنيين، هم أول كافر بالقرآن نفسه،

كما أنهم ينطلقون من فكرتين أساسيتين للترويج لمعصية رسول الله صلى عليه وسلم وهما:

خلق ندية بين الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فمن أطاع رسول الله صلى الله عليه وسلم مشرك لم يجعل الحكم لله وحده بزعمهم.

وهذا أمر في غاية السخافة، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوجب الله طاعته وجعل طاعته طاعة لله كما مر معنا.

لذلك هذه الشبهة ليس لها مسوغ أو مستند تستند عليه، وإنما أريد بها تخويف ضعفاء العقول الجهلة، فبمجرد أن يتعلق الأمر بالشرك وهو أعظم ذنب، لابد أن ترتعد فرائسهم فالشرك ظلم عظيم، وهكذا يخوفهم القرآنيون من طاعة رسول الله بحجة أنها شرك بالله، وهم يعلمون أنهم كاذبون في دعواهم.

المنطلق الثاني هو تفسير كلمة الكتاب في القرآن حيثما وردت بالقرآن، وهو تفسير خاطئ، سيجعل صاحبه يكذب الله عز وجل، لأن الله لم يفصل كل شيء في القرآن، وإنما فصله في الكتاب الذي هو أشمل من القرآن، كما سبق وبينا.

ثم إن المتأمل لحال منكري السنة، يجد القوم – إذا افترضنا سلامة نواياهم فبواعث التشكيك في نواياهم قائمة – أوتوا من جهتين، الجهل بلسان العرب من جهة، والجهل بالقرآن والسنة نفسها، وإليك بيان ذلك.

يتضح جهل القرآنيين بلسان العرب، حين يزعمون أن الله عز وجل لم يوحي على محمد صلى الله عليه وسلم غير القرآن ويستدلون بآيات منها :

‹قُل أَيُّ شَيءٍ أَكبَرُ شَهادَةً قُلِ اللَّهُ شَهيدٌ بَيني وَبَينَكُم وَأوحِيَ إِلَيَّ هذَا القُرآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُم لَتَشهَدونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخرى قُل لا أَشهَدُ قُل إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ وَإِنَّني بَريءٌ مِمّا تُشرِكونَ› [الأنعام: ١٩]

ومنها :

‹وَقالَ الرَّسولُ يا رَبِّ إِنَّ قَومِي اتَّخَذوا هذَا القُرآنَ مَهجورًا› [الفرقان: ٣٠]

ولو تأملت الآيات وقرأتها ألف مرة لن تجد فيها حصر الوحي في القرآن، حيث أن الآيات لم تحوي أداة حصر، أو أسلوب حصر، فلم يقل ربنا وأوحي إلي هذا القرآن فقط، مثلا، ولم يقل ولم يوحى إلي غير هذا القرآن.

فكل ما في آية الأنعام أن الله أوحى القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا حق، ولكن ليس في الآية أن الله لم يوحي غير القرآن، لذلك أقول أن القرآنيين يجهلون لسان العرب، حيث استدلوا بآية على الحصر، دون أن يكون فيها أداة حصر، أو أسلوب حصر.

يتجلى جهلهم بلسان العرب أيضا في جهلهم بمعنى كلمة الكتاب فيفسرونها بالقرآن وحده، وهي في الحقيقة أشمل من ذلك كما بينت آنفا.

أما من جهة جهلهم بالقرآن والسنة النبوية فيتجلى ذلك في نسبتهم للسنة، ما ليس منها، فالحديث الضعيف ليس من السنة أصلا، ولا معنى أن يطعن في السنة بما

ليس منها, كما يتجلى في ادعائهم أن متبع السنة مشرك بالله, وهذا مناف لقول الحق سبحانه:

‹مَن يُطِعِ الرَّسولَ فَقَد أَطاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلّى فَما أَرسَلناكَ عَلَيهِم حَفيظًا› [النساء: ٨٠]

فبين سبحانه أن طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم, من طاعته عز وجل, وليست مستقلة عنها, مما يؤكد مما لا يدع مجالا للشك أن الأوامر التي أمر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليست من عنده وإنما هي وحي الله عز وجل, مثلها مثل القرآن.

إن الجهل لدى العوام بلسان العرب, وبالسنة نفسها, هو سبب افتتان كثير منهم بشبهات القرآنيين, التي تنهدم عند التحقيق والتنقيح.

للمزيد حول شبهات القرآنيين حول السنة أنصح بقراءة هذا المقال الذي ناقشت بعض شبه القوم

المراجع

القرآن الكريم

مقدمة ابن الصلاح بتصرف

نزهة النظر بتصرف